الباب الأول

الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨م

الفصل الأول: الحياة الثقافية في فلسطين

الفصل الثاني: الشعر الفلسطيني قبل فترة البحث

الفصل الثالث: الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨ إلى ١٩٤٨م.

الفصل الرابع: الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٨م.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الحياة الثقافية في فلسطين

أولاً: الحياة الثقافية في فلسطين قبل حقبة البحث

لم تكن فلسطين قبل بدء الانتداب البريطاني وحدة مستقلة عن شقيقاتها العربيات المجاورات، فمنذ الفتح الإسلامي إلى العصر العثماني وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بقطر أو أكثر من الأقطار المجاورة. وظل «جند فلسطين» ـ ولم يكن يومئذ يشمل فلسطين الحالية كلّها ـ يزيد وينقص، فيتبع قسم منه مصر إبان النفوذ الطولوني أو الإخشيدي أو الفاطمي، ويتبع قسم آخر الشام أيام تنافس الدولة العباسية والفاطميين، وبالرغم من كل تغير فإن القدس بقيت محجة أهل الشرق والغرب وموقع محبتهم وتقديرهم.

كان النشاط العلمي والأدبي في «فلسطين» التي نعرف حدودها اليوم محدوداً، بخلاف النشاط الديني ولا سيّما في المساجد والكنائس بمدينة القدس، بسبب قدسية هذه المدينة، وإقبال علماء الدين عليها، فضلاً عن المتعبدين والمقبلين على تلقي دروس العلوم الدينية بنهم في كل زمان.

ومع أنه لم تبرز في فلسطين مدينة تقوم بمثل دور بغداد أو القاهرة أو دمشق في العصر الإسلامي أو العباسي أو الفاطمي، لأنها لم تكن مركزاً لخليفة أو سلطان حتى يجذب إليها الشعراء والكتّاب[1]. ولم تشتهر بالرخاء

(١) مجلة الأديب، السنة الرابعة، أيار ١٩٤٥، ص ٤٦، بحث بعنوان الحياة الأدبية في فلسطين، بقلم إسحٰق موسى الحسيني.

الاقتصادي أو الترف الذي نعمت به هذه الأقطار، للأسباب ذاتها، لكن هذا لا يعني أنها لم تشهد شخصيات أدبية رفيعة في مختلف المجالات.

والواقع أنه كان لفلسطين حظ وافر في استقبال بعض الصحابة والفقهاء والشعراء وكبار الكتّاب، وكان لها أيضاً الفضل الكبير في إنجاب شخصيات مهمة تتميز بها في تاريخ الأقطار العربية.

ولقد أكرم المولى العرب إذ جعل لغتهم هي اللغة العربية، وبعث فيهم نبيّاً عربيّاً هو النبي محمد ﷺ، وأنزل القرآن الكريم باللغة العربية، وجعل لغة أهل الجنّة هي اللغة العربية: ولقد أحب العرب لغتهم وأحبُّوا العلم وسعوا إلى كسبه، وحضَّ الدين الإسلامي على طلب العلم من المهد إلى اللّحد.

وتشهد بطون الكتب أنّ الأمية كانت شائعة بين العرب قبل الإسلام، ولا سيَّما في المناطق البدوية، وتجاوب المسلمون مع دعوة الدين لهم بالسعي إلى كسب العلم، وخير دليل على ذلك تعلم الكثيرين على أيدي السبعين أسيراً من المشركين الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر. يقول الأستاذ مصطفى مراد الدَّبّاغ:

ولمّا انتشر الإسلام وفتحت الأقطار رحل الصحابة كمعلمين يعلّمون الناس تلاوة القرآن الكريم وتفسيره والحديث الشريف وما يتعلّق بهما من علوم. فكانت البعثة التعليمية الأولى التي نزلت بلادنا فلسطين برئاسة معاذ بن جبل وعضوية عبادة بن الصامت وعبدالرحمن بن غنم وأبي الدرداء، تفقه عليهم الكثيرون، فكانوا أول المعلمين الذين عرفتهم بلادهم في عهدها الإسلامي»[1].

---

(١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): فتوح البلدان ص ٦٦٠ ـ ٦٦٤، تحقيق وشرح عبد الله وعمر أنيس الطبّاع. بيروت، دار النشر للجامعيين ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

أمّا أمكنة التعليم فكانت تقتصر في صدر الإسلام على الكتّاب[1] والمسجد، لأنهما مكانا التعليم العام، والبيوت والقصور للتعليم الخاص.

وبرز من العرب علماء في مختلف المجالات وأهمّها الفقه، والأدب ـ شعراً ونثراً ـ والرياضيات والفلك والطب والفلسفة وغيرها. ويشهد التاريخ بحضارة العرب وتقدمهم، ولا سيّما في العصرين العباسي والأندلسي على سبيل التخصيص. ومن المعروف أنهم خلّفوا تراثاً دينياً وأدبياً وعلمياً قيّماً، كان وسيبقى منهلاً يعبّ منه كل راغب في الاستفادة والبحث.

ولسنا هنا بصدد التعريف بأشهر رجالات العرب في هذه المجالات، غير أنني سأكتفي بذكر أبرز الذين ظهروا في فلسطين في العصور السابقة، ومن هؤلاء:

١ ـ أبو شعيب القرشي العدوي الصحابي، فإنه كان من أهل فلسطين، وكان أميراً على مصر ليزيد بن معاوية، وقد روى عنه أهل مصر[2].

٢ ـ موسى بن نصير، صاحب فتوحات الأندلس[3].

٣ ـ سعيد بن يزيد الأزدي، والي مصر من قبل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عام ٦٢هـ[4].

---

(١) الكتّاب لفظ مشتق من «التكتيب وتعليم الكتابة»، وهو أقدم المعاهد التعليمية التي عرفتها فلسطين في العصر الإسلامي، علماً أنه كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام، فأحياه عمر بن الخطاب، وهو عبارة عن مدرسة صغيرة لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، وجمعه كتاتيب ومكاتب.

(٢) الخالدي ـ أحمد سامح: أهل العلم بين مصر وفلسطين، ص ٥. المكتبة العصرية، القدس، د.ت.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٤ ص ٤٧١. بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧م. ومصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين ج ١، ق ١، ص ٥٥ و١٠٣. وج ١ ق ٢ ، ص ٣٩٩.

(٤) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين ج ٤ ق ٢، ص ٢٩.

٤ ـ إدريس بن حمزة الرملي (ت ٥٠٤هـ)، ويحيى بن أحمد النابلسي (ت ٧١٦هـ)، وهما فقيهان كبيران[١].

٥ ـ الإمام الكبير محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، أحد الأئمة المجتهدين الأعلام، وإمام أهل السنّة، ولد في غزة على الأصح سنة (١٥٠هـ). خرّج كتاب الأم، وكتاب السنن وغيرهما كثير، توفي في مصر عام ٢٠٤هـ[٢].

٦ ـ أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوري الفلسطيني، كان قاضي القضاة وداعي الدعاة في خلافة الإمام المستنصر بالله الفاطمي، انتقل إلى الرملة وولي الحكم فيها بعد والده، تولى الوزارة (عام ٤٤٢هـ) ثم قتل عام (٤٥٠هـ)[٣].

وغير هؤلاء كثيرون[٤]، منهم:

أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم المقدسي الفقيه الشافعي المتوفّى سنة ٥١٨ أو ٥٣٨هـ، والإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان البلخي المقدسي المعروف بابن النقيب، وكان متفوقاً في التفسير (ت ٦٩٨هـ)، والشيخ المحدّث أبو محمود أحمد بن محمد بن هلال المقدسي (توفي بمصر ٧٦٥هـ)، والعلاّمة عماد الدين أبو الفدا إسمـعيل بن جماعة الكناني الشافعي خطيب المسجد الأقصى، وكان قد عمل قاصياً ومدرساً (ت ٧٧٦هـ)، وغيرهم كثيرون.

---

(١) المصدر السابق، ج٤، ق٢، ص ٤١٤. و ج٢، ق٢، ص ١٣٥.
(٢) أحمد الخالدي: أهل العلم بين مصر وفلسطين، ص ٦.
(٣) أحمد سامح الخالدي: أهل العلم بين مصر وفلسطين، ص٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٨ ـ ١٢.

ومن الأدباء الكتّاب الناثرين[1]:

١ـ عبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت ١٣٢هـ/ ٧٥٠م). ومعاوية بن عبيد الله الأشعري، أدار المملكة في عهد المهدي.

٢ـ القاضي الفاضل ـ عبد الكريم بن علي العسقلاني البيساني (ت ٥٩٦هـ).

٣ـ المقدسي ـ شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء (ت ٣٨٠ هـ).

٤ـ صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله، له مئات التصانيف، من أشهرها في التراجم: «الوافي بالوفيات». وفي الأدب: «جنان الجناس»، و«تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون». توفي ٧٦٤هـ.

٥ـ ابن حجر العسقلاني ـ شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد الكناني، أصله من عسقلان، تصانيفه أكثر من أن تعدّ، أهمها: «تهذيب التهذيب»، و«لسان الميزان»، و«الإصابة في تمييز أهل الصحابة»، و«فتح الباري في شرح صحيح البخاري» و«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة». توفي عام ٧٧٣هـ.

ومن المؤرخين والرّحالة والجغرافيين[2]:

---

(١) ناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ١٤ ـ ١٧. إسحٰق موسى الحسيني: هل الأدباء بشر، ص ٣١ ـ ٣٦. الزركلي ـ خير الدين: الأعلام، ج١ ـ ٨. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٤م. ومجلة الرسالة،العدد ٦٨٤، ١٣/آب ١٩٤٦، ص ٨٩٧. بحث بعنوان الأدب في فلسطين، بقلم الأستاذ محمد سليم الرشدان.

(٢) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، بيت المقدس، ج ٩، ق ٢، ص ١٤٥ ـ ١٤٦. و «من هنا وهناك»، ص ١١٧ و١١٨. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ (١٩٨٦م).

المؤرخ مطهر بن طاهر المقدسي «توفي بعد عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦م» وهو مؤرخ كتاب (البدء والتاريخ)، وعبد الرحمن بن محمد، المقدسي (ت ٢٨٧هـ)، مؤلف كتاب (الأنس الجليل بتاريخ بيت المقدس والخليل)، وسليمان بن أحمد الطبراني وهو رحّالة كبير.

ومن المهندسين[١]:

المهندس أبو بكر المقدسي، وسعيد بن عبد الله المقدسي (ت ٥٣٢هـ / ١١٣٦م)، ومحمد بن مضر المخزومي، وهو من علماء الهندسة والفلك والهيئة.

ومن الأطباء[٢]:

محمد بن أحمد بن سعيد أبو عبد التميمي، ورشيد لدين أبو سعيد، ويوسف بن هلال بن جمل الحلبي، وعلاء الدين الكحّال، وأيوب نعمة ـ النابلسي زين الدين الطيّب الفقيه (ت ٧٣٠هـ)، ومحمود بن الحسين أبو الفتح الرملي طبيب وشاعر، واسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٧٣٢هـ).

ومن الشعراء ثلاثة مجلّون يعدّون من الطبقات الأولى بين شعراء العرب، هم[٣]:

١ـ كشاجم الرملي ـ محمود بن محمد بن الحسين الرملي، نسبة إلى الرملة قرب مدينة يافا. كان شاعراً لأبي الهيجاء ولابنه سيف الدولة

---

(١) مصطفى مراد الدباغ: من هنا وهناك، ص ١١٨ راجع ص ٩٦ من التاريخ والآثار ـ الحلقة الدراسية الأولى ـ الجامعة العربية.

(٢) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين ج ٩ ق١، ص ١٤٦ ـ ١٤٧. وج ٢ ق ٢، ص ١٣٥. وج ٩ ق ٢، ص ٣٢١. و«من هنا وهناك»، ص ٩٨ ـ ١٠٢.

(٣) إسحٰق موسى الحسيني: هل الأدباء بشر، ص ٢٩ ـ ٣٦. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٠م. وناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ١٣.

الحمداني، وهو طبيب أيضاً، توفي نحو سنة ٣٥٠هـ. ومن آثاره المطبوعة: ديوان شعره، ورسالة عنوانها: أدب الندماء ولطائف الظرفاء.

٢ـ أبو إسحاق الغزي ـ إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي، له ديوان شعر ما زال مخطوطاً، وله أبيات سائرة مشهورة، توفي عام ٥٢٤هـ.

٣ـ الأديب القيسراني ـ أبو عبد الله، محمد بن نصر بن صغير العكاوي القيسراني، كان سائر الشعر ذائع الصيت. توفي ٥٤٨هـ.

وغير هؤلاء الشعراء كثيرون، منهم[١]:

إدريس بن يزيد اللخمي النابلسي (من أدباء وشعراء القرن الرابع الهجري)، ومحمد عبد القادر المرداوي (شاعر برع في النحو والدراسات العربية واللغة، ت ٦٩٩ هـ)، ومحمد بن أحمد الأنصاري البيساني (متميز في اللغة والأدب والفقه) وغيرهم.

ويسهل العثور على الشعراء الفلسطينيين بعد القرن الرابع للهجرة[٢].

وبعد:

فإنني لم أقصد ذكر إحصاء شامل لكل الذين برزوا في فلسطين في الأدب والفقه والتاريخ وسائر العلوم، وذلك يحتاج إلى كتاب خاص، وهو ليس مهمتي الحالية، وإنّما قصدت مجرد التمثيل والاستشهاد، بغية الإشارة إلى وجود الكثيرين من المبرزين في فلسطين عبر العصور.

وتدلّ الوقائع على أن أرض فلسطين شهدت عدداً وافراً من رجال الدين والأدب والعلوم والتاريخ، وبلغ بعضهم أعلى مراتب الشهرة، تشهد

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان مج ٥، ص ٢٤٩. ومصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٦ ق ٢، ص ٤٧٤. وج ٢ ق ٢، ص ٤٩٣.

(٢) إحسان عباس: مخطوطة بعنوان «الشعر في فلسطين حتى عام ١٩٦٧م»، ص ٣.

على ذلك الآثار المهمة التي خلّفوها في الميادين المختلفة وعير ذلك.

ويشير إحسان عباس[1] إلى أنّه بعيد القرن الخامس الهجري وحتى القرن السادس لم يظهر بفلسطين دور في أي نشاط شعري بارز، ولم يتحسّن الحال إلاّ في مطلع القرن الثالث عشر، بينما ظهر في الفترة لسابقة علماء في مجالات أخرى مثل ابن أبي الشخباء، والقاضي الفاضل، وصلاح الصفدي وغيرهم.

وهذا الموضوع يذكرنا بأن الثقافة ضرورية للشاعر، ولكنها إذا لم تلقّح بالموهبة أو الاستعداد الفطري، فإن الشعر ـ بمعناه الصحيح السليم لا بمعنى اتقان النظم ـ سيظل غائباً.

ويعزو الدكتور إحسان عباس[2] التخلّف في الشعر في الفترة الواقعة بين القرن الخامس الهجري والقرن الثاني عشر منه إلى أن الشعر على مرّ الزمن كان يفتقر بالتدريج إلى شيئين:

١ ـ الموضوع الذي يلتقي حوله الشاعر جمهوره، سواء أكان ذلك الموضوع نابعاً من الذات أو من المجتمع.

٢ ـ القدرة على التعبير عن ذلك الموضوع بلغة شعرية سليمة من حيث مستوى الفصاحة.

ويبدو لي أنّ الجهل والاستبداد اللذين خيّما على بلاد الشام عامة، ومنها فلسطين، في ظل الدولة العثمانية، قد أدّيا إلى التأخر الثقافي والفكري فيها، حيث لم تلقِ هذه الدولة بالاً يذكر إلى نشر العلم وألوان المعرفة، وبذلك لم تشهد هذه البلاد تقدماً وتطوراً بخلاف بلدان أوروبا التي كانت تعجّ فيها نهضة علمية بارزة.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣، ٤، ٢٩.

(٢) إحسان عباس: المصدر السابق، ص ٣١.

تقول أسمى طوبي : «لم تحرّك الدولة العثمانية ساكناً لانشاء المعاهد العلمية في هذه البلاد.. وكلّ ما فعلته في بادىء الأمر هو فتح المدارس الابتدائية «الكتاتيب».. يتجمّع فيها الصغار وأمامهم شيخ يلقّنهم الآيات القرآنية الكريمة ومبادىء اللغة العربية... كما أنها فتحت «الكتاتيب» للإناث أيضاً، وكانت تديرها شيخات على نمط ما يفعل الشيوخ.

وتطورت هذه الكتاتيب إلى مدارس نظامية في مستهلّ القرن العشرين، ولكن لم يصبح للبنات مدارس ابتدائية كاملة إلاّ في سنة ١٩٠٨، حيث أعلن الدستور العثماني، ونصّ بند من بنوده على وجوب التعليم الابتدائي الكامل للاناث»[١].

وفي القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر للميلاد، بدأت رياح التغيير تهبّ على منطقة الشرق الأدنى، ولكن أثرها كان بطيئاً متفاوتاً بتفاوت الجوانب التي مسّتها تلك الرياح.

ولقد مهّد لهذا التغيير تغير البرامج في الأزهر، والصلاحية في القدس، ومعاهد ومؤسسات الآستانة في فتح السبل لتقبّل المستجدات في الحياة العلمية والثقافية بعامة، ومن ذلك أيضاً ظهور المدرسة الحديثة في برامجها ونظمها[٢].

وبرزت عوامل عديدة كانت سبباً في بعث نهضة فكرية وأدبية في بلادنا، بدأ تأثيرها يظهر في القرن التاسع عشر، وازداد انتشاراً وتأثيراً بعد الحرب العالمية الأولى.

وهكذا أخذت مظاهر تقدم بطيء تأخذ دورها في بلادنا، ولا سيّما منذ إعلان الدستور عام ١٩٠٨م، حيث ازداد عدد الصحف والمعاهد والمدارس،

(١) عبير ومجد، ص٢٠.

(٢) إحسان عبّاس: مخطوطة له بعنوان: لشعر في فلسطين حتى العام ١٩٦٧م، ص ٢٩ - ٣٠.

وارتفعت الأصوات العربية مطالبة بحقوقها، ومن بينها اعتماد اللغة العربية لغة رسمية ثانية في البلاد، ثم تبعتها مطالب بالاستقلال وتحقيق الحريات. ويذكر كامل صالح السوافيري أن عدد المعهد والمدارس في فلسطين في العام الدراسي ١٩١٣ ـ ١٩١٤ كان (٩٥) مدرسة ابتدائية، تحتوي على (٧٧٥٨) تلميذاً وتلميذة، يقوم بتدريسهم (٢٣٦) مدرّساً ومدرّسة، علماً أن عدد التلاميذ الذين كانوا في سن التعلُّم الابتدائي الإلزامي يبلغ (٧١,٩٢٣)، وهذا يعني أن المدارس الأُخرى لم تكن تضم إلاّ ١٠٪ منهم[١]. ثمّ يقول: «هذا إلى جانب مدرستين متوسطتين (اعداديتين)، إحداهما في مدينة عكا، والثانية في مدينة نابلس، ومدرسة ثانوية واحدة كان يطلق عليها اسم المكتب السلطاني في القدس. وكانت لغة التدريس في هذه المدارس التركية لا العربية، وفي الوقت نفسه كان في فلسطين في العام الدراسي نفسه (٥٠٠) مدرسة ابتدائية أهلية (حرّة) وطائفية، وعدد من المدارس الأجنبية، من بينها مدارس أمريكية وانكليزية والمانية وفرنسية وإيطالية وروسية. ويعود معظمها إلى الإرساليات الدينية[٢]».

وبلغ مجموع الطلاب الذين كانوا يتعلمون يومئذ في لمدارس الأهلية المشار إليها آنفاً (١٥٧٧٣) تلميذاً وتلميذة، منهم (٨،٧٠٥) في المدارس الخاصة بالمسلمين، و(٣٤٤٥) في المدارس الخاصة بالنصارى، و(٣٦٢٣) في المدارس الخاصة باليهود[٣].

لقد وجّهتُ عناية خاصة إلى وضع المدارس في فلسطين قبل حقبة البحث، في الوقت الذي كانت تخيّم عليها ظلمة الجهل والتخلّف العلمي،

---

(١) الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) السوافيري ـ د. كامل: الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سنة ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠م، ص ٢٩. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

بينما كانت تسود الأميّة، لأن المدرسة هي النواة الأولى، وهي المنارة التي تنير سبل الحياة، وتبدّد الظلام، وتبعث الوعي، وتساعد على التقدم والازدهار.

وليست المدرسة وحدها هي التي تنمّي الثقافة، وتوسّع المعرفة، بل هناك عوامل أخرى مثل الاذاعة والتلفزيون والكتب والصحف والمجلاّت وحركة الترجمة والمؤتمرات والأندية وغيرها. وسنعرض لذلك في القسم التالي.

ثانياً: الحياة الثقافية في فلسطين خلال حقبة البحث

كان لانفتاح فلسطين على الأقطار العربية وسائر بلدان العالم ـ وبمقدمتها أوروبة وأميركة ـ أثر كبير في بعث نهضة ثقافية امتدّ إشعاعها إلى مختلف مجالات العلم والفكر والأدب، وكان حظ الشعر منها وافراً.

ونتيجة لتقدير أهل فلسطين لقيمة العلم أَقبلوا على فتح المدارس والمعاهد، وارسلوا أولادهم إليها وإلى غيرها من المدارس الرسمية التي ازداد عددها أيضاً، وتوجّه آخرون إلى عدد من جامعات الأقطار العربية والأجنبية، واتصلوا بالتيارات الفكرية الحديثة، سواء بوساطة القيام بالزيارات إلى أقطار عديدة، أو في استقبال الزائرين من العلماء والشعراء والكتّاب، واهتموا بجلب المطابع ونشر الكتب والصحف واستقبال الدوريات الوافدة إليهم من خارج بلدهم.

وسأعرض في ما يلي لأَهم عوامل هذه النهضة[1]، مؤخراً بحث حال

(١) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، ص ٦٢ ـ ١٢٠. دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م). وناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ٥٣ ـ ٦٤. وكامل صالح السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص ٨٥ ـ ١٠٥. مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. وكامل صالح=

التعليم إلى آخر هذه العوامل، كي أوفر له قسطاً أكبر من الدرس، وهذه العوامل هي:

١ـ الاتصال بالتيارات الفكرية الحديثة: ويتمّ ذلك في المدارس والجامعات العربية والأجنبية، وبوساطة المؤتمرات والزيارات المتبادلة والرحلات الثقافية والاطلاع على الصحف والمجلات الأدبية والثقافية والكتب ومنها الدواوين الشعرية لأعلام الشعر. وكانت نسبة القرّاء بين أبناء فلسطين كبيرة لأن أنفسهم أصبحت متعطشة للمعرفة، ولذلك دأبوا على التهام مؤلفات العقّاد وطه حسين وأحمد أمين والمازني وزكي مبارك وسيد قطب والرافعي، وكانت صحف الأهرام والبلاغ والمصري والجهاد المصرية تصل إلى فلسطين في اليوم الذي تصدر فيه في القاهرة، كذلك كانت مجلات الهلال والمقتطف والسياسة والثقافة تصل إلى فلسطين بانتظام. أما مجلة الرسالة التي بدأ أحمد حسن الزيّات إصدارها ابتداء من عام ١٩٣٣، فقد تجاوز انتشارها بين أيدي المثقفين إلى الطلاب في المرحلة الثانوية في فلسطين[١].

وكان للحملة الفرنسية على بلادنا ثمّ عمليات الاتصال وامتزاج الثقافات وتبادل ألوان المعرفة آثار مفيدة للعرب وغيرهم.

وقد سهّل هذا الاتصال وسائل النقل الحديثة المختلفة: سيارات، قطارات، طائرات، بواخر، فقرّبت المسافات، وقلّت المشاق، وتوفّر

=السوافيري: الأدب العربي المعاصر، ص ٦٦ ـ ٧٢. وأحمد خليل العقاد: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، صفحات متفرقة وبمقدمتها، ص ٩٢ ـ ٩٥. وأنيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص ٥٧ ـ ٥٨. دار ابن زيدون، بيروت، ط١ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

(١) ناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية في فلسطين، ص ٥٣ ـ ٥٤. وكامل السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر لفلسطيني المعاصر، ص ٩٣ ـ ٩٤. والأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٧٠ ـ ٧١. وأنيس النصولي: أسباب النهضة العربية، ص ٥٩ ـ ٦٧.

الوقت، وازداد إقبال الطلاب والمثقفين على الزيارات وعقد المؤتمرات والمطالعة وتلقي العلم، ممّا أثرى وأغنى معرفة الدارسين والباحثين والأدباء والشعراء، وعكس ذلك كلّه تأثيراً طيّباً في صفوف المختصين وأسلوب الكتّاب وشعر الشعراء، وأدّى إلى رفع مستوى مناهج الطلاب.

٢ـ المطابع ودور النشر والمكتبات والكتب والصحف والمجلات:

تعتبر فلسطين مبكرة في تاريخ الطباعة ببلاد الشام بعد لبنان، حيث أنشئت في القدس مطبعة بوساطة النسخ بالأيدي عام ١٨٣٠م، كانت تطبع كتباً دينية، ثم أحضر الرهبان الفرنسيسكان ثلاث مطابع كبيرة إلى بيروت والقدس ما بين سنة ١٨٣٠ و١٨٥٠ كي تساعدهم على القيام برسالتهم...، وفي ذات الوقت أعانت ـ هذه المطابع ـ على نشر آداب اللغة العربية في بلاد الشام، وكانت أدوات الطباعة كلّها من النمسا. ثم أحضرت سائر الإرساليات مطابع أخرى، ومن المطابع التي تطورت كثيراً وأصبحت ذات شأن في البلاد مطبعة دار الأيتام السورية التي امتازت بما كانت تؤديه للمعارف والآداب من الخدمات الجليلة. ثمّ أصبح لكل طائفة مطابع تؤمن لها حاجاتها وسائر الطلبات[١]. وهكذا راحت المطابع تزداد وتطبع الكتب والصحف والمجلات التي انتشرت بكثرة في بلادنا، وهي أشدّ اتصالاً بالطلاب والمجتمع، إذ إنّها تطلع عليهم بالمعلومات والمقالات الافتتاحية، حاملة كل جديد ومفيد من داخل البلاد وخارجها، دون كثير عناء للوصول إلى هذه المعلومات، وباتت أشبه بنافذة يطلّ المرء من خلالها على العالم بأسره.

ومنذ توفر المطابع في فلسطين صدر فيها الكثير من الكتب والصحف والمجلات، وعرضت بوساطة دور النشر والمكتبات، ممّا ساعد في الاطلاع

---

(١) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني، ص ٧٧ ـ ٩٠. وكامل السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني، ص ٩٣ ـ ٩٤. وناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ٥٥ ـ ١٠١.

على الأساليب العربية والأجنبية والأداء الرفيع وقضايا الفكر وروائع الشعر والقصص والأبحاث وغيرها، وأسهم ذلك في نشر الثقافة ورفع مستوى الأساليب والبحث والإنتاج العلمي والأدبي، فضلاً عن دورها النضالي في الدفاع عن فلسطين وحقوق شعبها العربي وتشخيص آلامه وترجمة آماله.

وأهم الصحف والمجلات الفلسطينية: القدس، النفائس العصرية، الدستور، الدفاع، اللواء، الوحدة العربية، دار المعلمين، اقتصاديات فلسطين وشرق الأردن، الفجر، الشرق، النفير وغيرها[1].

٣ـ حركة التأليف والترجمة: اغتنت فلسطين بعدد وافر من رجالاتها الذين عملوا في مجالي التأليف والترجمة، فألّف بعضهم في التاريخ والأدب والنقد الأدبي والعلوم، وقرض بعضهم الآخر الشعر، وحقق آخرون الأبحاث والمخطوطات، وترجم فريق آخر أهمّ ما عثر عليه من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية وبالعكس، ومن أشهر المؤلفين: خليل السكاكيني، إسعاف النشاشيبي، أحمد سامح الخالدي، الدكتور إسحاق موسى لحسيني، خليل بيدس، حافظ طوقان، أكرم زعيتر، نقولا زيادة، مصطفى الدباغ، محمد عزّة دروزة، عارف العارف، الدكتور إحسان عباس، والدكتور محمد يوسف نجم وغيرهم.

ومن أشهر المترجمين: خليل بيدس، أحمد سامح الخالدي، محمد عادل زعيتر، وعجاج نويهض، وعادل جبر[2].

٤ـ الجمعيات الثقافية والخيرية والبعثات والمؤتمرات والمستشرقون والأندية: لقد وفدت إلى فلسطين إرساليات عديدة أفادت المواطنين العرب كثيراً، كذلك لعبت الجمعيات دوراً رئيسياً، وبمقدمتها: الجمعية الإسلامية

(١) أحمد خليل العقّاد: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ٩٢ ـ ٩٥.

(٢) ناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ٦٢ ـ ١٠١. وعبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني، ص ١٠٨ ـ ١١٨.

المسيحية، وجمعية الشبان المسيحية، والجمعية الأدبية الخيرية، والجمعية الألمانية الفلسطينية، وجمعية تهذيب الفتاة ـ وهي إسلامية ـ، وجمعية السيدات ـ وهي مسيحية ـ، وجمعية الشبان المسلمين وغيرها.

وعقدت في فلسطين مؤتمرات عديدة منها المؤتمر الفلسطيني الثالث الذي عقد في حيفا من ١٣ إلى ١٩ كانون الأول عام ١٩٢٠ وترأسه السيد موسى كاظم الحسيني، وكان نواة العمل للأمة. ووفد إلى البلاد مستشرقون عملوا في مختلف الميادين.

كذلك التأمت المجالس الخاصة والحلقات مثل (حلقة الأديب)، وأسست جمعية الموظفين. كما أنشئت الاتحادات والنوادي، ومنها اتحاد العمّال، والنادي الكاثوليكي، والنادي الرياضي الإسلامي، والنادي الأرثوذكسي.

وأقيمت الحفلات وألقيت الخطابات في مناسبات عديدة متنوعة، ومنها الحفلة التكريمية التي أقيمت للشاعر خليل مطران في نادي جمعية الشبّان المسيحية في القدس في ٢٥/ ١٠/ ١٩٢٤. وأقيمت فيما بعد حفلات غيرها لأمين الريحاني وفؤاد صروف وقسطنطين زريق وفؤاد الخطيب وبشارة الخوري «الأخطل الصغير» وخليل مردم.

ودعي إلى القاء المحاضرات والكلمات في أندية فلسطين كوكبة من كبار الكتّاب والمفكرين والشعراء نذكر منهم: محمد توفيق ذياب صاحب صحيفة الجهاد، والشيخ عبد الوهاب النجار، والدكتور منصور فهمي، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأسعد داغر، ومحمد مهدي الجواهري وغيرهم[١].

---

(١) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني، ص ٩٤ ـ ١٠٠. وكامل السوافيري: الأدب العربي في فلسطين، ص ٧١ ـ ٧٢.

وعندما زار سليم سركيس القدس عام ١٩٢٠م، التقى بالشاعر العراقي معروف الرصافي وغيره، فكتب إلى خليل بيدس يهنّئه بوجود «مجلس الأدباء» في هذه المدينة، ثمّ احتفل نادي الألعاب الرياضية بالقدس بسركيس والرصافي، وألقيت يومئذ الكلمات والقصائد الرائعة[١].

وكان لهذا كله أثر بالغ في توثيق الأواصر والصلات، وتبادل الآراء، ونشر الثقافة، وتشجيع التعاون بين الفلسطينيين أنفسهم، وبينهم وبين إخوانهم العرب وسائر مثقفي العالم.

وتوجهت عدة بعثات من فلسطين إلى بلدان أوروبة وأميركة، ويذكرنا هذا بالبعثة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبة...

هذا فضلاً عن بعثات أخرى كرَّسَت اهتمامها لدراسة آثار فلسطين، لما لهذا البلد من أهمية دينية وتاريخية، فوفد إليه علماء كما قامت معاهد ومدارس بدراسة آثار فلسطين، وتعددت الأبحاث والتنقيب عن الآثار التي تعود إلى عصور مختلفة. وقد زوّدت بعض المتاحف بالكثير من هذه الآثار، ونشرت حولها معلومات قيّمة في كتب التاريخ وغيرها.

وأقيمت في فلسطين منابر الشعراء ولا سيّما بعد النكبة، وتعدّدت الجمعيات وأشهرها الجمعية العربية الثقافية ورابطة القلم العربي ونقابة العمال والمنتديات الأدبية والمهرجانات لثقافية والوطنية، وكان لها دور بارز في الدفاع عن فلسطين وشعبها.

٥ ـ الاذاعة: الإذاعة من أهم عوامل النهضة، وهي وسيلة اتصال سريعة بين البشر، وتعتبر من أحب الأمور إلى قلوب الناس، وأكثرها صلة

---

(١) النفائس العصرية، القدس، ج١٧، السنة السابعة، ١٩٢٠م، ص٢٥٠ ـ ٢٥٢. وعبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ٩٤ ـ ١٠٠. وكامل السوافيري: الأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٧١ ـ ٧٢.

بشؤون الإنسان والكون والخالق. ويندر أن نجد إنساناً يستغني عنها، لغاية أو أخرى، وبذلك فهي ضرورية لكل شعب ودولة.

ويعتبر نشر الثقافة رسالة مقدسة يؤديها المذياع إلى أبناء البلد وإلى سائر العرب، أينما وجدوا، في لحظات أو دقائق قليلة، ويشترك فيها العالم والمؤرخ والأديب والكاتب والشاعر والباحث والناقد والطبيب والممثل والموسيقي من رجال ونساء[1]. ويصبح مجموع ما يقدّمه هؤلاء أشبه برحيق أو بلسم، يعالج نظرياً كل نقص، ويصف الدواء لكل داء يعانيه المجتمع، فضلاً عن الترفيه والتسلية الهادفة، فيثقفه وينير له الطريق إلى شاطىء الأمان.

أنشأت حكومة الانتداب البريطانية داراً للاذاعة الفلسطينية في مدينة القدس، فبدأت إرسالها في ٢٩ آذار عام ١٩٣٦م، وجاءت متأخرة قياساً إلى غيرها. وكان من حسن الحظ أن وقع اختيار الحكومة على شاعر فلسطين الوطني إبراهيم طوقان لادارة البرامج العربية[2]، فأحسن استخدامها في مرحلة كفاح مرير ضد الانتداب والصهيونية، فأذاع البرامج الأدبية والوطنية التي أعدها بنفسه، أو بالتعاون مع عدد من الفلسطينيين، وغيرهم من العرب البارزين مثل المرحوم عبد القادر المازني وغيره.

وما لبث إبراهيم أن قدم للمواطنين تحقيقاً بيّن من خلاله أن «السموأل» ـ وهو يهودي ـ كان ذا نزعة يهودية من حيث حبه للمال، ممّا جعله يطمح بمال واعده به امرؤ القيس اذا هو استجاب لطلبه. . . . فآثر المال على ذبح ابنه، هذا فضلاً عن اعتقاده بأن امرأ القيس لن يعود وسيكون المال من نصيبه، فاهتاجت الصهيونية وظلّت تدس لإبراهيم، فضلاً عن سعي

---

(١) من مقدمة كتاب «حديث الإذاعة» بقلم الأستاذ عجاج نويهض، القدس ١٩٤٢.

(٢) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ١٠٠ ـ ١٠٢. وكامل السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص ١٠١. والأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٧٢.

الخصوم، ممّا أدّى إلى عزله بعد أربع سنوات قضاها في خدمة التراث العربي الإسلامي، وشعبه ووطنه[1].

ولمّا خلفه الأستاذ عجاج نويهض في مراقبة هذه البرامج راح يعدّها ببراعة واخلاص، ويدعو الكتّاب والباحثين في فلسطين وسائر الأقطار العربية الى المشاركة بتقديم المواضيع القيّمة[2]. فأدوا جميعاً خدمات كثيرة مهمّة للتراث العربي الأدبي والعلمي، وأفاد منها المواطنون العرب. وبثت هذه الإذاعة موضوعات مختلفة في الدين والأدب ـ ولا سيّما قصائد كثيرة لشعراء فلسطين والعالم العربي ـ وفي النقد والطب والتاريخ والتربية والترجمة والسياسة والاقتصاد والفن.

ثم أقيمت إذاعة ثانية في فلسطين، وكانت تدعى «محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في فلسطين»، فقامت بدور شبيه بدور المحطة الأولى، ووجّهت دعوات إلى علماء وأدباء وصحفيين ومحاضرين في الأقطار المجاورة مثل الشيخ عبد الله العلايلي. والشاعر محمد الحوماني، والأستاذ كرم ملحم كرم، فوفدوا إليها، وشاركوا في تقديم موضوعات قيّمة[3].

وعندما حدث عدوان حزيران سنة ١٩٦٧م كانت هاتان الإذاعتان تقومان بدور فعّال في مختلف الميادين . . ، فسارع العدو إلى إيقافهما، لأن

---

(١) زكي المحاسني: شاعر فلسطين إبراهيم طوقان في حياته وشعره وشقاء بلاده. . . ص ٥١ ـ ٦٨. دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت. وعبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ١٠٠ ـ ١٠٢. وكامل السوافيري: الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني، ص ١٠١ ـ ١٠٢، والأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٧٢. وزكي المحاسني: شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، ص ٤٠ ـ ٦٨.

(٣) مجلة الأديب لالبير ديب، ج٣ سنة ٤، ص ٥٩. بيروت ١٩٤١. وعبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني، ص ١٠٣

دورهما كان يتعدى نشر الثقافة إلى توعية الجماهير ومعالجة قضاياها، فضلاً عن أنهما تعتبران وسيلة للنضال وإحداث انقلاب في المجتمع.

وأصبح اليوم كل شعب وكل دولة ناجحة بحاجة إلى إعلام ناجح، ولم يعد الإعلام وسيلة ضرورية للتعليم والتثقيف والنشر فحسب، بل وسيلة أيضاً لنجاح معظم المؤسسات التجارية وغيرها...

٦ـ **التمثيليات المسرحية**: لقد هيأت كثرة الجمعيات والنوادي جو البلاد لغرس بذور نهضة تمثيلية مسرحية، في مدن فلسطين، وأخذت الإذاعة الفلسطينية منذ عام ١٩٣٦م تخصص جانباً لها في برامجها، فيستمع إليها المواطنون العرب، وينتعشون ويتأثرون بها حسب مقتضى الحال.

وممّن كتبوا الروايات والمسرحيات التي مثلت على بعض مسارح فلسطين وعدد من الأقطار العربية، جميل البحيري وبرهان الدين العبوشي ومحمد حسن علاء الدين ومحيي الدين الحاج عيسى.

ومن الجمعيات التمثيلية التي شاركت في تنمية هذا الفن: «جمعية الفنون والتمثيل»، حيث مثّلت رواية عنترة، «وجمعية الشبان المسلمين»، حيث مثّلت رواية «دموع اليائسة». وقام رجال النادي الساليسي بتمثيل روايتين إحداهما (كسرى والعرب)، والأخرى (انتقام الكاهن) فلاقتا نجاحاً كبيراً. ومثّل فريق الهيئة التمثيلية لنادي الشبيبة في بيت لحم (رواية الاستبداد). وقامت فرقة نادي الشبيبة الارثوذكسية بتمثيل عدة روايات ناجحة، ومثّلت بعض الفرق روايات متنوعة منها رواية «هملت» الاجتماعية لشكسبير.

وتعتبر «فرقة الكرمل»، وعلى رأسها الممثل إسكندر أيوب، أشهر فرقة تمثيل عربية نشأت قبل نكبة عام ١٩٤٨[١].

---

(١) عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، ص ١٠٣ ـ ١٠٨. وأنيس النصولي: أسباب النهضة العربية في ق١٩، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.

وقد أثمرت هذه البذور في مجالي الأدب: الشعر والنثر، ولاقت ترحيباً وتشجيعاً من العرب، إلا أن حكومة الانتداب لم تشجعها تحسباً من الآثار المترتبة عليها في توحيد صفوف العرب وتوعيتهم وتعاونهم ضد الانتداب والصهيونية.

٧ـ نهوض الأحزاب السياسية[١]: سبق أن ذكرنا أهم الأحزاب التي نشأت في فلسطين، والواقع أنها كانت تحمل رسالة مهمة وأسهمت في مهمة التوعية والتعاون والتطوير، وناضلت من أجل تحقيق تطلعات الجماهير وإحقاق حقوقها المختلفة، وبمقدمتها التحرير والاستقلال.

٨ ـ استخدام الصناعات والأدوات الحديثة في مختلف المؤسسات والأماكن: وخير دليل على ذلك استخدام التلفزيون والسينما والراديو وأجهزة التسجيل والآلات الحاسبة وأدوات الطب والبناء والزراعة والمطبخ، ثم الوسائل السمعية ـ البصرية في المدارس وغيرها.

فمن هذه الأدوات ما يثقف، ومنها ما يوفر الراحة والشفاء، ومنها ما يوفّر العناء والمال والوقت، وذلك كلّه يسهم في قيام النهضة أو ازدهارها.

٩ ـ التعليم: رغبت الدولة البريطانية أن تبرز صورة جيدة عن عهدها، علّها تعود عليها قبل غيرها بفوائد جمّة، فراحت تشق الطرق وتزيد عدد المستشفيات والمدارس، وجعلت اللغة العربية هي لغة التعليم الأساسية تليها الانكليزية في صفوف المواطنين العرب.

وأخذ التعليم ينتشر وارتفع عدد التلامذة العرب من ٢٥٦٥٠ تلميذاً عام ١٩٢٠/ ١٩٢١ إلى ١٠٤,٩٤٠ تلميذاً عام ١٩٤٣/ ١٩٤٤، أي أكثر من

---

(١) أنيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ص ٥٧.

أربعة أضعاف[١]. وازدادت المدارس العربية بالنسبة ذاتها، بينما ازدادت المدارس العبرية بنسبة أكبر، وكان يديرها المجلس اليهودي الملّي[٢].

وترتّب على ذلك أن ازداد عدد المعلمين من ٦٣٩ معلماً عام ١٩٢١/ ١٩٢٢، إلى ٢٧٠٠ معلم عام ١٩٤٧/ ١٩٤٨. وإذا كان ازدياد عدد الطلاب بطيئاً جداً حتى عام ١٩٢٣م، فإنه بدأ يرتفع بمعدل أكبر مع ازدياد عدد المدارس حتى وصل إلى ٤٢,٧٦٥ تلميذاً عام ١٩٣٥/ ١٩٣٦، ثمّ أصبح بطيئاً بعض الشيء خلال الثورة، ولكنه عاد فارتفع إلى أن وصل عام ١٩٤٧/ ١٩٤٨ إلى أكثر من ١٠٥٠٠٠ تلميذ[٣].

اهتمت حكومة الانتداب بالتعليم الابتدائي بغية محو الأمية، وتخريج موظف بسيط ضمن خطة مرسومة بحيث لا يستطيع أن يقود شعباً ويحلّ قضاياه الكبرى... ولم توجّه عناية كافية للمراحل الأخرى، ولهذا يعتبر عدد الذين استطاعوا متابعة الدراسة قليلاً بالنسبة إلى عدد الطلاب في المرحلة الابتدائية، وكانت نسبة المتعلمين من المسيحيين ـ كما أسلفنا من قبل ـ أكثر منها لدى المسلمين، بسبب وفرة مدارس الإرساليات الأجنبية المسيحية. وإذا كانت الثورات والحركات السياسية الوطنية كثرت بين ١٩٢٢ و١٩٤٨، فيجدر القول إن حركة ثقافية ناشطة رافقتها جميعاً[٤].

ولتعلّق الفلسطينيين بالعلم توجّه عدد من الطامحين بغية متابعة الدراسة في بعض جامعات الأقطار العربية والأوروبية وعادوا فأسهموا في خدمة وطنهم وكانوا في مقدمة المناضلين الفلسطينيين.

(١) بدران ـ نبيل أيوب: التعليم والتحديث، ج ١، ص ١١٤. مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٩م.

(٢) ناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، ص ٥١.

(٣) نبيل أيوب بدران: التعليم والتحديث، ج ١، ص ١١٤ وما بعدها.

(٤) شرارة ـ عبد اللطيف: إبراهيم طوقان، ص٩. دار بيروت، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

كان الفلسطينيون يتبرعون من أجل إقامة المدارس والمعاهد، وهذا دليل على وعيهم لقيمة العلم وأهميته، وبلغت نسبة الذين أصبحوا يعرفون القراءة والكتابة ممّن كانوا في سن السابعة فما فوقها أكثر من ٣٠٪ بين عام ١٩٤١ و١٩٤٥. أما في المدن فكانت النسبة تتراوح بين ٤٠ و٤٥٪ وهي أعلى نسبة في البلاد العربية بعد لبنان[١].

ويضيف الدكتور السوافيري قوله: «عند بداية العام الدراسي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، وقبل وقوع الكارثة، كان في فلسطين ١٢ مدرسة عربية ثانوية كاملة، و٢٠ مدرسة تضم الصف الأول الثانوي فحسب أو الثاني فقط أو الصفين معاً، ومعهدان للتعليم العالي، وهما الكلية العربية ـ دار المعلمين ـ والكلية الرشيدية في مدينة القدس، وفي كل منهما سنتان دراسيّتان خاصتان بعد إتمام الدراسة الثانوية توزعت فيهما المواد بين القسمين الأدبي والعلمي، ومعهد ثالث للحقوق يلتحق به الطلبة من العرب واليهود، وكانت المرحلة الابتدائية في فلسطين مكوّنة من سبع سنوات، والثانوية من أربع[٢].

وبسبب رغبة فتيان فلسطين وفتياتها في تلقي العلم ولخلو البلاد من التعليم الجامعي والدراسة العالية، توجّهوا للتخصص على نفقتهم في جامعات الأقطار العربية والأوروبية والأميركية، يحفزهم حُبُّ العلم وخدمة فلسطين والتنافس الشديد بينهم وبين اليهود، وقد بلغ عدد الذين توجهوا إلى الأقطار العربية في عام ١٩٤٨م (١٠٦٥) طالباً وطالبة، كان معظمهم في القاهرة، حيث كان فيها الأزهر الشريف وجامعة القاهرة ودار العلوم والجامعة الأميركية، ثم في بيروت، حيث كانت فيها الجامعة الأميركية، وقد فتحت

---

(١) السوافيري ـ كامل: الأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٦٧. دار المعارف بمصر عام ١٩٧٩م. والاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص ٩٢.

(٢) كامل السوافيري: الأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص ٦٨.

مختلف الجامعات وخاصة العربية أبوابها لأبناءِ فلسطين[1]، الذين كانوا يعودون حاملين مشاعل الفكر، وألوان المعرفة، وأسهموا في خدمة بلادهم ونهضتها في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية حتى جعلوا فلسطين مرشحة بعد مصر ثم لبنان في قيادة موكب النهضة العربية.

كان أبناء فلسطين جادين نشيطين، رغم أنه لم يكن في بلدهم حتى عام ١٩٤٨ جامعة ولا كليات أو معاهد جامعية، ولم يكن لهم مجمع، ولا مكتبة عامة (دار كتب)، بينما كان لليهود جامعتهم العبرية قرب القدس، والتي أنشئت عام ١٩٢٥م[2]، وكانت تحتوي الكليات المختلفة، ومكتبة ضخمة، كما كانت لهم معاهد عالية، ومدارس اختصاصية فنية، تدعمها الهيئات الصهيونية في الداخل والخارج.

ولو لم تتوال المؤامرات على الشعب الفلسطيني وتنشب الثورات والمعارك والحروب التي خَلَّفَت آثاراً قاسية ومعيقة، فضلاً عن عدم جدية حكومة الانتداب في تسهيل التخصص الجامعي للطلاب العرب بدليل عدم فتح جامعة واحدة لهم في فلسطين، لولا ذلك كلّه لما تأخر بدء النهضة في فلسطين عنه في مصر ولبنان، وبالرغم من ذلك فلو لم تحدث النكبة ويمزّق شمل الشعب الفلسطيني ويواجه أقسى الظروف، التي لم يتعرض لمثلها أهل مصر ولبنان، لأمكنهُ اللحاق بهذين القطرين، ونافسهما في نواحي النهضة الأدبية والعلمية في بلاد العرب.

أ ـ وطرأت تغييرات عديدة على الفلسطينيين بعد نكبة عام ١٩٤٨م، ففي الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ توقف العديد من المدارس عن تأدية مهماته

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) كامل السوافيري: المصدر نفسه.

بسبب النقص في المدرّسين أو تفكك إدارات تلك المدارس، ثم ما لبث أن تنامى عدد المدارس الابتدائية، بالإضافة إلى المدارس الأهلية سواء في المدن أو القرى، وتدل الإحصائيات أنه بلغ في نهاية العقد الأول من قيام «دولة إسرائيل» عدد المدارس الابتدائية، الرسمية والأهلية ١٦٧ مدرسة، و١٤١ روضة أطفال في ١٣٨ تجمعاً سُكّانياً عربياً، وقد تكفلت الدولة والسلطات المحلية (البلديات والمجالس المحلية) معاً بتأمين تعليم ابتدائي مجاني الزامي، ثم أضيف إليه تعليم صفّين آخرين، وتتحمّل الدولة في هذا المجال مسؤولية تأمين المدرّسين وإقرار برامج التعليم، بينما تتحمّل السلطة المحلية والأهالي مسؤولية تأمين أبنية المدارس ولوازمها، أما أولياء أمور الطلاب فيتحملون مصاريف أبنائهم الخاصة ويشترون لهم الكتب والقرطاسية وما شابهها.

ب ـ وتقدم الدولة مساعدات معينة لطلاب المرحلة الثانوية، بينما تتحمّل السلطات المحلية أو المؤسسات الخاصة سائر المسؤوليات.

ويذكر أن حوالى ربع الأحداث في سنّ التعليم الإلزامي لا يكمل دروسه أو حتى لا يتعلّم في المدارس على الإطلاق، كذلك فإن الطريقة التي أديرت بها المدارس العربية لم تؤدّ إلى تقدم ملموس في مستوى التعليم العربي الذي لا يزال غير مرضٍ، وتترتب عليه آثار ضارّة في أوضاع العرب ومستوى معيشتهم[1].

ومن الواضح أن السلطات الإسرائيلية سلكت سبيل التجهيل المتعمّد تجاه عرب الأرض المحتلة، وأصبح هذا العمل سمةً بارزة من سمات الأرض المحتلة، ومن ذلك التعلّق بحجج واهية، تؤدي إلى فصل المعلمين الأكفاء، وتعيين معلّمين أنهوا المدارس الابتدائية مكانهم، وعدم توفير العدد

(١) صبري جريس: العرب في إسرائيل، ص ٣٤٤ وما بعدها.

الكافي من الأساتذة الأكفاء، وأتباع وسائل تودي بالطلاب إلى ترك الجامعات، مثل التخويف والتهديد، ثمّ عدم تأمين الكتب والمدارس أو الغرف الكافية للطلاب[1].

وقد لوحظ انخفاض مستوى التعليم في الوسط العربي في الأرض المحتلة. ويذكر غسان كنفاني[2] أنه من الجيل العربي الذي بدأ التعليم في الصف الأول الابتدائي سنة ١٩٥٧ ترك المدرسة ٤٥ بالمائة منهم في سنة ١٩٦٤م، أي قبل أن ينهوا الصف الثامن، الذي يعادل الصف الرابع المتوسط (التكميلي) في لبنان، ثم يؤكد أن الوضع في المدارس الثانوية والجامعية أقسى من ذلك بكثير، ويذكر على لسان أحد الصهيونيين، يدعى «أساف»، أَنَّ نسبة النجاح في امتحانات الشهادة الثانوية (باغروت) «المتركيوليشن» لعام ١٩٦٣م كانت ١٢ بالمائة، وقد انحدرت إلى ١٠ بالمائة في العام ١٩٦٤م، بينما تذكر مصادر أخرى بينها منظمة الأرض في «إسرائيل» أَنَّ هذه النسبة لم تكن عام ١٩٦٤م أكثر من ٤ أو ٥ بالمائة.

أما نسبة تخرّج العرب من الجامعات في «إسرائيل» فإنها أيضاً منخفضة، ومن ذلك أن مجموع الطلاب العرب في الجامعات في «إسرائيل» عام ١٩٦٧م بلغ ٢٠٠ طالب فقط مقابل ١٩ ألف إسرائيلي.

ومن ذلك نلاحظ أن نسبة التعليم التي كانت مرتفعة نسبياً في زمن الانتداب البريطاني قد انخفضت إلى الحضيض خلال الثماني عشرة سنة التي تلت النكبة الأولى، ولا يمكن أن تنحدر مثل هذه النسبة مع ازدياد وعي الفلسطينيين لولا عوامل قاهرة كان العدو يتعمّد تنفيذها، أوصلت وضع التعليم في المدارس العربية إلى ما آل إليه...

(١) كنفاني ـ غسان: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ـ ١٩٦٨م، ص١٩ ـ ٢٦. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩ ـ ٢١.

وبعد اطّلاع أحد المربين الفلسطينيين في الضفة الغربية[1] على بعض الملفّات الخاصة بمادتي اللغة العربية والتاريخ اللتين تُدَرَّسان في الأرض المحتلة حتى عام ١٩٦٧م قرّر أن مستوى التعليم هناك منخفض جداً: فالمادة تافهة، والتهديد مستمر للمعلمين المثقفين القدامى، والمحاولات مستمرة لسلب الثقافة العربية قيمتها، وآفاقها، وتفضيل العامية على الفصحى، ممّا يشكّل صداماً صامتاً في الغالب، وقمعاً للمعلمين العرب المحلصين لعروبتهم وتراثهم، وهذا ما يؤكد أن السلطات الأسرائيلية تتعمّد تجهيل العرب.

ويقول الأستاذ صبري جريس: «إنّ مستوى التعليم المنخفض في المدارس الابتدائية العربية أسفر عن تأثير سيّىء ومباشر في مستوى المدارس الثانوية، كانت نتيجته رسوب نسبة ملحوظة من الطلاب العرب في امتحانات «الباغروت» لإنهاء الدراسة الثانوية، ولا يزال حتى الآن أكثر من ثلثيهم غير قادر على اجتياز هذه الامتحانات، ونيل شهادة تمكّنه من الحصول على وظيفة، أو متابعة دراسته في الجامعات ومعاهد الدراسة العليا[2]».

وليس هناك أدنى شك في أن السلطات الإسرائيلية تدرك مستوى التعليم بين الطلاب العرب، وتعرف نتيجة امتحانات الدراسة الثانوية، ورغم ذلك تتوالى السنوات دون أن تحرّك ساكناً لمعالجة شؤون الطلاب العرب بما يعود عليهم بالنفع والتقدم، وهذا يعني أن هذه السلطات راضية بهذا الواقع السيّىء، بل إنها قد خطّطت له ولا تريد للعرب حالة أو نتائج أفضل، بغية تحقيق أهدافها العريضة الخبيثة، على حساب العرب، وهي تخشى إذا انقلبت الحال أن يشكّل ارتفاع مستوى الدراسة ونسبة النجاح خطراً يهدّد راحتها وكيانها في المستقبل...

---

(١) الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ـ ١٩٦٨م، ص ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) صبري جريس: العرب في إسرائيل، ص ٣٥٤.

وممّا يؤكد أن إهمال هذه السلطات لأحوال العرب سياسة لا مصادفة هو شمول هذا الإهمال لمختلف شؤون العرب في الأرض المحتلة، ويدلّل الأستاذ صبري جريس على ذلك بقوله: «كذلك فإن أوضاع التعليم بين العرب في المجالات الأخرى، عدا تلك التي أشرنا إليها، كالتعليم المهني أو الفني، غير مرضية أيضاً إذا ما قيست بحاجات السكان العرب أنفسهم أو قوبلت بأوضاع التعليم اليهودي[1]».

وتعترف السلطات الإسرائيلية بأن أوضاع التعليم العربي متدهورة، وأكّد أحد تحقيقات لجان المعارف والثقافة ذات مرّة أن حالة التعليم الثانوي تثير القلق، وقدّمت عدة توصيات بهذا الشأن...، وتعزو الضعف إلى أسباب غير مباشرة، ولكن أهم تلك الأسباب هي عدم توفّر عدد من المعلمين الأكفاء، ونقص في تجهيزات المدارس، ثم وجود برامج تعليم غير واضحة أو غير كاملة، وخاضعة لتغييرات مفاجئة من حين إلى آخر.

وتتخبط السلطات الإسرائيلية في موقفها، فبينما يحتوي البرنامج العربي على تشديد واضح على التاريخ اليهودي وعدم ذكر مؤلفات أي كاتب أو شاعر فلسطيني، يجري تجاهل العرب وتاريخهم في المدارس اليهودية، وفضلاً عن ذلك فإنها لم ترغب أن تزود السكان العرب بالعلم الضروري لهم كمّاً ونوعاً، وأن موقف هذه السلطات يعود أساساً إلى رغبتها في خلق جيل من العرب موالٍ للدولة أو على الأقل راضٍ عنها. ولكنها لم تستطع تحقيق هذا الهدف ولن تستطيع بإذن الله. ويعتبر سجل هذه السلطات في هذا المجال من أسوإ السجلات في علاقات النظام الإسرائيلي بالعرب وموقفه منهم[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٢) المصدر نفسه.

وطالما تكرّرت عمليات قتلٍ لمواطنين عرب بشكل أو بآخر، بينهم طلاب لم يجدوا عملاً بعد تخرجهم، أو آخرون كانوا يريدون متابعة الدراسة وحاولوا العبور إلى قطاع غزّة أو الأردن، وكان يعلن عن هذه العمليات تحت هذا العنوان أو ذاك، ومنهم من اضطرِ إلى ترك غرفته بالجامعة بعد تَلَقّي التهديد إذا لم يغادر[1]...

ولم تحظ شكاوى العرب باهتمام فعلي من أصحاب الشأن، فوقعوا أسرى القمع والإرهاب والإجرام، ويذكر أن دوريات من الشرطة الإسرائيلية جمعت ذات مرّة عشرات من الأدباء والشعراء العرب في فلسطين المحتلة في حزيران ١٩٦٧، ومن هؤلاء الشعراء: محمود درويش، حبيب قهوجي، سميح القاسم، توفيق زياد، سالم جبران، والمحامي الكاتب صبري جريس، والأديب فرح سليمان، وعلي عاشور، والطالب الجامعي خليل طعمة، وحين أطلق سراح بعض هؤلاء فيما بعد «ثبّتهم» الحاكم العسكري بأوامر تحديد الإقامة والإقامة الجبرية، علماً أنّه لا بدّ لكل أديب أو شاعر أو كاتب عربي في الأرض المحتلة من تلقي مثل هذا الأمر بين الفينة والأخرى[2].

لقد تكرر أمر الإقامة الجبرية، مثلاً في المنزل، مع ـثبات الشخص وُجُودَهُ مرة في اليوم في مركز الشرطة في بلدته، ومن بين الذين حدّدت إقامتهم الجبرية عدد كبير من المثقفين والأدباء العرب في فلسطين المحتلة، ومن بينهم الشاعران محمود دسوقي وسالم جبران، وصليبا خميس وعبد العزيز أبو إصبع ومئات غيرهم[3]، وإذا لم يصوّت أدباء المقاومة العرب للحزب الحاكم أو إذا كتب أحدهم قصيدة أو قصة أو مقالاً يعبّر من خلاله عن واقعهم المرّ يعتبر غير مخلص للدولة ممّا يوجب اعتقاله.

---

(١) غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، ص ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨ ـ ٢٩.

وطالما رافق مثل هذه الاعتقالات والاحتجازات عمليات عنف من ضرب وتعذيب، تجري في غرف تسمّى الواحدة منها «غرفة التأديب»، دون الإدلاء بالأسباب، يشترك فيها رجال الشرطة والمباحث العسكرية، وممّا قيل للطالب الجامعي السالف الذِّكر ـ خليل طعمة ـ يوم اعتقاله: نريد أن نشرب كأساً من دمك، كيف تكرهون الدولة[1]؟

وبعد حرب حزيران راح شيخ الأدباء العبريين، يهودا بورلا، يعترف ـ في كلمته أمام مؤتمر أدباء «إسرائيل» ـ بعظمة تلك الأيام التي أعقبت انتصارهم في حرب الأيام الستة[2]. ولم تذكر في ذلك المؤتمر كلمة احتجاج واحدة على الاضطهاد الكبير الذي تعرّض له، وما زال، الأدباء العرب في الأرض المحتلة.

لقد واجه الأديب والشاعر والمثقف العربي هذه الأعمال الوحشيّة بصبر وإرادة قوية على التمسك بحقهم وحق شعبهم، وبقوا يدافعون عن هذا الحق بكل وسيلة ظاهرة أو مستترة. ورفض الشاعر سالم جبران العفو مقابل الاعتراف بتهمة «التجسس» المنسوبة إليه.

والقصيدة الشعرية ميدان فسيح للكتابة الرمزية، يعبّر من خلالها الشاعر عمّا يخالجه من شعور قومي أو إنساني دون أن يفصح عن ذلك، ولهذا خاطب الشعراء أحباءهم مراراً وهم يرمزون بذلك إلى الوطن، لأن الشعر بات وسيلة لإنشاد الأهداف والايحاءات، وإذا ما كتب الشاعر في قصيدته «الويل يا ظالم...» يفهم القارىء اللبق ما يرمي إليه الشاعر، ويحسّ بإحساساته، في حين لا تستطيع السلطات تحديد مغزاه حتى تتّخذ ضده الإجراءات القانونية...

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) المصدر نفسه.

ومن هنا استطاع الشاعر مخاطبة الجماهير وإيصال مغزه وأهدافه إليها والتأثير فيها.

وبذلك اقترن القول بالعمل، وبات الشاعر كالشمعة التي تحترق لتضيء الطريق. وهكذا آمن هذا الشعب المناضل أنه لا بدّ للقيد أن ينكسر وللمظلوم أن ينتصر.

وتعوّض الاذاعات العربية وغيرها والتلفزيون المواطنين العرب في الأرض المحتلة عن أي نقص لديهم في الثقافة العربية الإسلامية والسياسية والاجتماعية وغيرها، بحيث تذهب مخططات العدو لتجهيل العرب وقلب الحقائق سدى، هذا فضلاً عن السفر إلى الخارج مثلاً بداعي التجارة أو الدراسة، ممّا شكّل وسيلة اتصال لتبادل الثقافة والاطّلاع على كتب ونشرات ومعلومات مهمّة تنير عقولهم. وينعكس ذلك على المواطنين العرب في الداخل، فتجدهم متلهفين إلى العرب وثقافتهم. وحيث أنهم لا يرون الكثير من المساوىء المنتشرة في مجتمعاتنا تجدهم يتلقفون ـ عبر الإذاعات العربية والتلفزيون والكتب ـ الثقافة الناصعة، ممّا يعكس آثاراً طيبة ومطمئنة في أوساطهم، فيبدون أكثر تآلفاً وتعاوناً تجاه الخطر الإسرائيلي، ويهتفون بصدق لكل انتصار أو وحدة عربية، ويستبشرون خيراً بذلك. وقد أفرز ذلك كله حركة أدبية عربية ملتزمة تبدو من خلال أدباء وشعراء الأرض المحتلة، وبمقدمتهم محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم وسالم جبران وغيرهم.

وبعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ تمكن عرب الداخل من الاتصال بإخوتهم الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزّة، وأصبحوا يطّلعون باستمرار على تراث العرب والعالم وحقائق الأمور، وليس هذا فحسب، بل إنَّ الصورة راحت تنعكس، حيث راح هؤلاء العرب ينقلون إلى المقيمين في الداخل، بمن فيهم اليهود وأدبائهم، التراث العربي والإسلامي، ويترجمون

الحقائق التي ظهرت كالشمس الناصعة، ومن الحماقة تجاهلها أو إنكارها، وارتفعت أصوات بعض اليهود معترفة بالكثير من حقوق العرب في فلسطين ومتضامنة مع عرب الداخل في إحقاقها.

وهكذا فالحقائق والتراث لا يمكن دفنهما، أو حتى إخفاؤهما عن الناس إلى وقت طويل، لأن جولة الأكاذيب والظلم قصيرة، وسرعان ما تذوب أو تنهار أمام شمس الحقيقة المتوهجة، وإرادة المناضلين وعزيمتهم التي لا تلين، وإيمانهم الذي يتضاعف ولا ينقص. وعلى أهلها ستجني براقش.

أما أبناء فلسطين الذين بقوا في الضفة الغربية وقطاع غزّة، والذين تشردوا في الأقطار العربية المجاورة، فقد كان العلم همهم الأول، لأنه مصدر رزق وقوة من جهة، وسلاح لخدمة البشرية عامة وقضية فلسطين خاصة من جهة أخرى، وعلى هذا فقد سلك الكثيرون من شبّانهم سبل التخصص الجامعي، وبرز فيهم أخصائيون في مختلف المجالات. وتثبت الأبحاث أن نسبة المثقفين بينهم عالية.

واستمر هذا الاهتمام بعد نكبة عام ١٩٦٧م، غير أن المواطنين العرب في الأرض المحتلة عملوا على إنشاء عدة جامعات في مناطقهم، أهمها جامعة بيرزيت، جامعة النجاح، جامعة بيت لحم وجامعة غزة[١]، فأصبحت هذه الجامعات منارات مشعّة تنشر العلم والوعي، وبذلك تمكّن العرب في الأرض المحتلة من تجاوز أزمات سياسية واقتصادية، وأصبح الأساتذة والطلاب في هذه الجامعات بمقدمة روّاد الحركة الوطنية، يناضلون ضد الاحتلال الصهيوني، ويتعرضون مثل غيرهم للاعتقال والتعذيب والاضطهاد،

(١) عليان ـ محمد شحادة: الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، ص ٢٣. دار الفكر، عمّان، طبعة أولى ١٩٨٧م.

والإقامة الجبرية، والطرد من العمل أو الجامعة، والإبعاد عن الوطن في بعض الأحيان.

ومن الطبيعي أن تكون الأجيال لمتعلمة منفتحة، تتأثر بالنضال، لا سيَّما وانها معيار الوعي الثقافي[1].

وتبشّر النسبة العالية للمثقفين الفلسطينيين بالخير، لا سيَّما وأن هذه الفئة الطيبة تجمع على التمسّك بفلسطين، ولا ترضى عنها بديلاً، وتسهم ـ من خلال أدبائها وشعرائها ـ في قيادة موكبي العلم والتحرير، مصمّمة على تحقيق أهدافها الغالية، مهما غلت التضحيات، ولن تلين أو يهدأ لها بال قبل ذلك...

*** *** ***

(١) نبيل بدران: التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، ج١، ص ٢٧٦.

obeikandl.com